

# بواكير الادب المشرقي [السرياني]

استاذ/ فؤاد يوسف قزانجي

من المؤكد ان لغة السيد المسيح، لم تكن العبرية ولا اليونانية، انما اللغة الارامية التي كانت سائدة في بلدان الهلال الخصيب الى جانب اللغة الاكديّة منذ القرن العاشر وحتى القرن الاول للميلاد. كما ان اليهود الذين عادوا من بابل، كانت لغتهم على الأرجح هي الارامية، ولذلك تعزز التكلم في اورشليم وسائر فلسطين باللغة الارامية، واستمرت كذلك حتى مجيء المسيح وانتشار دعوته في فلسطين. وقد استعملها المجتمع المسيحي الاول في اورشليم وبيت لحم والناصرّة او نزاريا. وبعد قيامة السيد المسيح، وانتشار المسيحية نمت من الارامية لغة محكية هي اللغة السريانية.

بدأت المسيحية بذرتها الثقافية في المشرق اولا في بلاد الفرثيين اي في (العراق وايران)، وذكر ذلك في سفر اعمال الرسل (9:11) مما يؤكد ذلك، ما ورد في تاريخ اربيل عن نشوء المسيحية في حدياب كما لانستبعد نشوئها في نفس الفترة اي في اواخر القرن الاول للميلاد، في مملكة اسرهوبنة الارامية، ثم انتقلت الى نصيبين ومنطقة آمد، كما سنرى من خلال المؤلفات الاولى. وكانت مدينة الرها التي كان الرومان يسمونها اديسا، وحران او حرانو التي كانت من

الارجح مدينة انشأها الاكديون، اذ وردت في نصوصهم في القرن الواحد والعشرين قبل الميلاد، ومعناها الطريق. وان مابين القرن الثاني والربع الثالث من القرن الثالث، كانت بدايات النتاجات الفكرية المشرقية، وكان النتاج الاول هو (الدياتسرون) الذي جمع فيه تاتيان الاشوري من حدياب، الاناجيل المقدسة في كتاب واحد باللغة السريانية بين الاعوام 170-172م. هذا عدا الاناجيل الاربعة المقدسة التي سبقت هذه النتاجات والتي توضح اعمال واقوال المسيح وكذلك كتاب اعمال الرسل المقدس وكلها اوحيت وكتبت خلال القرن الاول للميلاد.

والحقيقة ان الادب باللغة السريانية لم يقتصر على المسيحيين، بل سنى ان هنالك باحثين يذكرون ان ادبا دينيا او ادب الحكمة كتبه اليهود او اليهود المتصرين باللغة السريانية ومنها ترجمة بعض اسفار العهد القديم ، و ان اكبر مجتمع يهودي خارج فلسطين كان يعيش في حدياب وخاصة في مدينة حزا او حزايا التي كانت تبعد 18 كم عن اربيل. وليس ذلك غريبا اذ ان الترجوم الفلسطيني كتب باللغة الارامية الشرقية، وقد اثبت المستشرق الالمانى بومشترك " ان اسفار موسى نشأت في منتصف اللغة الارامية الشرقية ثم انتشرت في حدياب الناطقة بالارامية". بالاضافة الى ذلك هناك كتاب وثنيين مثل (وفا) واحد الشعراء المسمى (اسونا) وغنوصيين كانوا يكتبون بالسريانية ومن بينهم الصابئة الحرانبيين.

ومن الجدير بالذكر ان يهودا الهاناسي في القرن الثاني للميلاد قد جمع واعد التقاليد اليهودية الواجب اتباعها وكتبها باللغة السريانية باسم (المشناه)، مما يدل على انتشار اللغة السريانية في فلسطين ايضا.

وقد وجد في الرها وما حولها 60 نقشاً كما عثر على بضعة اساطير حفرت على اضرحة ملوك اورهوي ، والتي تعود الى القرن الاول للميلاد . وكذلك وجدت بعض اوراق البردي مكتوبة بلغة ارامية تنحو كلماتها الى استخدام تعابير جديدة (سريانية)، كل ذلك يمثل نصف الطريق بين الارامية الرسمية واللغة الجديدة (السريانية) التي كانت تنمو كلغة ارامية اكثر سهولة في الكتابة، ملتصقة بالمسيحيين، اصحاب الفكر الجديد، بعد عهود من سبات الشرق وحضاراته. كما عثر ايضا في الرها على بعض النصوص القانونية التي تعود الى السنوات 243-240 . كذلك جاءتنا من مدينة دورا- يوربس 17 وثيقة تعود الى السنوات 252-232 ق.م. اي في نهاية العصر الهلنستي ، وبقايا ثلاث صفحات من الانجيل الدياتسرون باللغة السريانية، ووجدت في حطام كنيسة قديمة. (1)

بغض النظر عن قصة وحكم احيقار التي كتبت بالارامية في القرن السادس قبل الميلاد، والتي وجد لها نصوص سريانية في فترة مبكرة، كاملة و احيانا معدلة بذكر الله، وكذلك ابيات من قصيدة لشاعر آرامي يدعى (وفا)، وبضعة نصوص آرامية نقشت على اضرحة ملوك مملكة الرها او اسرهوينة، فان القطع الادبية السريانية الدينية تشكل غالبية النتاجات، واكلها النصوص الدنيوية السريانية في الفترة المبكرة للثقافة المشرقية او السريانية ونرى انها تمتد بين القرن الاول وبداية القرن الرابع . وسنسى الى توضيحها بشكل موجز، على النحو التالي:

١- كتاب اوسفر يهوذا : توجد رسالة كتبها مؤلف مسيحي مجهول، مع ان بعض الباحثين يجعلون هذا الكتاب من اعداد الرسول بولس، والبعض الاخر يعزوه الى

الرسول لوقا. لكن من الغريب ان الباحث والتر مارتن من معهد البحوث المسيحية يشير الى ان كاتبها يهودي، لكن نصها يدل على ان مؤلفها على الأرجح مسيحي، ومما جاء فيها:

\* ان الله كلمنا في الماضي عن طريق آبائنا الاولين من خلال انبيائه عدة مرات وبطرق مختلفة، ولكن في هذه الايام الاخيرة صار يكلمنا بواسطة ابنه... الخ.

\*\* كيف يمكن ان ننقذ انفسنا، اذا كنا ننكر الخلاص العظيم... الخ.

والمعروف ان دعوة المخلص اي المسيح هي جوهر المسيحية.

٢- رسالة مارا بن سرابيون(الوثني) من سميساط التي تعود على الأرجح الى عام ٧٢م، حيث ينصح فيها ابنه بالالتزام بالاخلاق الحميدة والتعلم، كما يتحدث في رسالته الى تدمير الرومان لمدينة بيت-المقدس وقتل المسيح الذي يشير اليه بانه (كان ملكا حكيما،و الذي قتل لكن الشرائع التي استنتها مازالت باقية ) كما يصف مارا معاناته واصدقائه حيث طرحوا في السجن في الاصفاد، ربما حدث ذلك على اثر تمرد مدينتهم (سميساط) على الرومان. وقد ترجمها الى العربية الاديب نزار ديراني في بغداد في عام ٢٠٠٥.

٣- كان الحدث المهم في القرن الثاني هو قيام تاتيان الاشوري (١١٠-١٧٢ ) او تتيانس من حدياب بترجمة الاناجيل التي كانت معظمها باليونانية وصاغها في كتاب واحد باليونانية عندما كان يدرس الفلسفة في روما،ولما عاد الى حدياب قام بترجمتها الى السريانية في العام (١٧١)، وسمي بالدياتسرون اي الرباعي كما عرف بالمتزج.بالاضافة الى ذلك خلف لنا تاتيان كتابا يجادل فيه اليونانيين

الوثنيين كان قد دعاه (خطاب الى اليونانيين) كتبه في روما باللغة اليونانية، الا انه مترجم الى عدة لغات ليس من بينها العربية والسريانية!. (٢)

٤- بين الاعوام ٢٠٠-٢٥٠ ، جرى ترجمة كثير من اسفار العهد القديم والعهد الجديد الى اللغة السريانية، من الراجح انها ترجمت من قبل يهود قبلوا المسيحية. ويسمى البعض بالبشيطية، ونرى ان هذه التسمية اطلقت على ترجمة الاناجيل الاربعة واعمال الرسل في اوائل القرن الخامس على يد رابولا. ثم دقت وسميت بالفولكسية، واعد تدقيقها بعد ذلك وسميت بالحرقلية .

٥- كان الفيلسوف برديسان (ت٢٢٢)، قد الف كتبا عديدة فقدت معظمها من بينها تقاليد الهند ورسالة ضد مرقيون الهرطوقي وكتاب في علم الفلك. اما كتابه عن تاريخ ارمينية فقد وجدت كثيرا من فقراته في التاريخ الارمني الذي كتبه موسى الخوريني ، وكتب رسالة بعنوان النور والظلمة وكتاب الثابت والمتحرك. كما اشتهر في (المحاورة) وهي قصيدة طويلة تسمى (دي فاتو ) يبرز في ثناياها دور التراث الحضاري لبلاد الرافدين، لكن اشهر كتبه هو كتاب شرائع البلدان، الذي يرجح بعض الباحثين انه قد يعود الى تلميذه فيليب؟ ومع كل ذلك فقد كان برديسان الشاعر المسيحي الاول، وتلاه في القرن الرابع شعراء آخرون متميزون، وبحسب مذكره الباحث جابوت، فقد كان الشعر السرياني يؤدي اغراضا دينية وفلسفية وفكرية، وكان يدافع عن جوهر المسيحية ضد الهرطقات التي ظهرت آنذاك عند آريوس واطاخي وغيرهما.

كان الشعر السرياني ينقسم الى قسمين: هما القصائد الشعرية ذات المغازي الدينية المتأثرة بالاحداث المذكورة في الكتاب المقدس، والقسم الثاني يعكس بجلاء

اهم الاحداث التي تمر بالمسيحيين في القرون الميلادية الاولى، بما فيها حصار المدن والاستيلاء عليها وذكرى الشهداء، اعتمادا على اوصاف جديدة ومتأثرة ولا شك بالادب الاغريقي وتراث بلاد الرافدين. كانت القصائد تنظم اولا على ثلاثة اوزان هي الوزن الافرامي الذي ابتدعه افرام السرياني، والوزن البباللي الذي افه بالوس مطران بالش، والبحر الاثني عشري الذي اعده يعقوب السروجي، ثم المدروشو اي الترانيم التي ابتدعها الشاعر برديسان، ومن الشعر الطريف ديوان خاميس قرداحي الذي يدافع فيه عن النسطورية!

٦- فيليب: يبدو ان برديسان خلف تلميذا حكيما، ذلك الذي عزي اليه المشاركة في تاليف كتاب شرائع البلدان، الذي يبين فيه اهمية ارادة الانسان في صنع مستقبله، ويعتبر ارادة الانسان اقوى من القدر، وقد عكس الكتاب بعض من ثقافة بلاد الرافدين القديمة.

٧- الف هورمونيوس ابن برديسان عدة تراتيل، كما يعزى له ترجمة اجزاء من الاوديسة، ذكر ذلك انطون التغريثي. (حيث ان مدينة تكريت كانت تسمى عند السريان تغريثا حتى القرن السابع).

٨- في نهاية القرن الثالث نظمت رواية شعرية تمزج بين القيم الروحية والاساطير، باسم (ترنيمة الروح). كما سميت عند ترجمتها الى الانكليزية ب(اللؤلؤة) وتصور رحلة امير بارثي ارسله ابواه الى ارض مصر للبحث عن لؤلؤة كانت تحرسها افعى سامة كبيرة، وذلك لاختبار شجاعته. رحل الى مصر، وبعد ايام طويلة من النسيان والكسل، استطاع ان يفكر في خطة ناجحة لقتل الحية والاستحواذ على اللؤلؤة، ثم يعود الى بلاده منتصرا، لكنه وجد شخصا مثله قد

حل بين اهل. وهي بالحقيقة رواية رمزية تمثل رحلة الروح من السماء الى الارض، حيث تقضي الروح زمنها في الجسد، الذي يمدها بواسطة العقل بالمعرفة العلوية اللازمة!؟. وواضح انها رواية غنوصية ساسانية، والغنوصية فلسفة انتشرت بين المثقفين وطلاب الفلسفة المسيحيين بين القرن الثالث و القرن الرابع.

٩ - كتبت قصائد سريانية باسم (اشعار سليمان) او موشحات سليمان تبلغ اثنتين واربعين قصيدة، كتبها شاعر او اكثر سرياني يجري في بعضها ذكر المسيح او احد رسله. اول من نشرها الباحث العراقي المتميز الفونس منكنا في نهاية عام ١٩١٣ في المانيا بعد ان ترجمها الى الفرنسية. يعود تاليفها الى اواخر القرن الثاني للميلاد. ان تاريخ قصائد سليمان ذات اهمية، ويعتبرها الباحث اج. جي. درايفرس انها تعود الى القرن الثالث. وجدت احد عشر قصيدة منها في مصر، مكتوبة على اوراق البردي، خمسة منها مترجمة الى القبطية والبقية باللغة السريانية. وهناك خلاف بين الباحثين والمستشرقين حول اعتبارها من الادب اليهودي ام من الادب السرياني؟ وتذكر موسوعة ويكيبيديا بالانكليزية: " ان هناك ٢٤ قصيدة تعزى الى سليمان، وان اكثر الباحثين يرون انها تعود الى القرنين الثاني او الثالث للميلاد وقد كتبت معظمها بالسريانية ولكن بعضها كتبت باليونانية ايضا، وانها ذات معاني مسيحية اكثر منها يهودية لانها تتغنى بالمسيح وولادة العذراء مريم، وهول جهنم والثالوث الاقدس. وربما انها كتبت في الرها. والارجح انها ترانيم كانت ترنم او تنشد في الكنيسة."

وقد درسها الراهب المعاصر ياسر عطا الله بالتفصيل وابرز ما ذكر عنها: "ان موشحات سليمان هي محاولات لاهوتية سريانية شرقية للتعبير عن الايمان بلباس شرقي وضمن مفاهيم الحضارة والثقافة المحلية من خلال استعمال صور معروفة وطرق فكرية ورموز شعبية خاصة بتقاليد ومحيط الشرق". (\*)

وهي مترجمة الى كثير من اللغات ولم يذكرها في تاريخ الادب السرياني سوى الباحث المطران افرام برصوم والعلامة سباستيان بروك، واليك ترجمة الابيات الخمسة الاولى:

ان الرب اكليل على رأسي، وانا لن ابقى بدونه،

وان اكليل الحقيقة مظفور على رأسي، وفروع الاكليل تزدهر حولي،

انه ليس مثلها التاج الذي لايزدهر،

ذلك لانك على رأسي وقد ازدهرت حولي،

ان ثمارك نضجة و مكتملة، كما انها ملأى بخلاصك.

١٠ - هناك رسالة ادبية لعلها منحولة تعزى الى الفيلسوف (ميليتو) بعنوان (حوار مع تريفو اليهودي ) لم اجد لها ترجمة بالعربية ولا بالانكليزية! وهي مناقشة ودفاع عن المسيحية!؟

١١- اقوال ميناندر السرياني The Sayings of Menander the Syriac. كتب ميناندر السرياني اقوالا حكمية متميزة بمستوى امثال احيقار،



عالية الفحوى لتعزيز الاخلاق والتقاليد المشرقية، بلغت ٥٠ مثلا يضمها ٤٣١ سطورا، تعود على الأرجح الى القرن الثالث. لم تنشر بعد باللغة العربية (سنقوم بإيفاء مضمونها بشكل منفرد).

١٢ - كتاب الخطوات Book of Steps او الديداعي. كتاب مسيحي اعد ما بين ٨٠-١٠٠م يضم تعاليم روحية عالية خاصة برجال الدين والرهبان والراهبات والنساك، ويحتوي على مراتب الرقي في مستوى التقوى والعفة والتقشف للانسان الذي ينذر حياته الى الله. وكانت هذه التقاليد الصارمة قد التزم فيها رجال الدين وخاصة في القرون الميلادية الاولى. يعزى كتاب الخطوات الى شخصية دينية مثقفة لمؤلف مجهول كان يعيش على الأرجح في منطقة حدياب قرب الزاب الاعلى حيث يذكر المؤلف هذا النهر اثناء عرض ارائه، وخطابه موجه الى المجتمع المسيحي المتدين. ينقسم الكتاب الى ثلاثين فصلا او توصية. وجاء في التوصية الرابعة عشرة: ان المجتمع المسيحي ينقسم الى قسمين، الكاملون الذين توجه لهم هذه الوصايا ليلتزموا بها، وهذه المجموعة عليها ان تترهب او تتنسك او ان تكون خادمة للكنيسة (قس او ساعور) وان تنبذ الزواج والعائلة والملكية، وان تتعمد بالنار والروح! ويبدو ان هذا الكتاب لا يخلو من تأثيرات غنوصية.

وقد الف في نفس المعنى في زمن لاحق، المطران فيلوسسيوس المنبجي، الذي دعا الى الحياة النسكية بحيث يصل الانسان الى الكمال، عندما يتواضع ويخدم الاخرين ويقضي حياته ببساطة ويصلي دوما بلهفة مبتهلا الى الارتباط بالروح

،ليعود الى جنة عدن ولا يكرر خطأ الانسان بطلب شجرة المعرفة، حتى يبقى الانسان في احضان الله.

١٣ - اعمال توما المنحولة: كتب المشرقيون العديد من الاناجيل واعمال الرسل كما يتصورونها، تقليدا للاناجيل الاربعة المقدسة التي كتبت من قبل رسل المسيح الذين عاشوا معه وبالطبع مع اعمال الرسل المقدسة ، اصف الى ذلك ان معظم الاناجيل المنحولة كتبت في مصر القبطية بعد كتابة الاناجيل الاربعة المقدسة بنصف قرن على الاقل، حيث انتشرت هناك الفلسفة الغنوصية، التي افسدت تفكير بعض المسيحيين، وكان اولها قصة حياة واعمال توما الذي كان احد تلاميذ المسيح، حيث انه توجه الى المشرق وربما الى منطقة حدياب ومن هناك سافر الى الهند لنشر الدعوة المسيحية. وقد نجح في دعوته، لكننا لانملك التفاصيل، انما نعرف ايضا ان حياته انتهت بمأساة حيث اعدم من قبل احد ملوك الهند. اما قصة اعمال توما المنحولة فتعود الى الفترة 200-225 م، وتروي ما حدث له، وكيف سافر على ظهر سفينة بعد ان بيع عبدا الى تاجر سافر مع البضاعة الى الهند! ولاتخلو القصة من ابداع روائي، لكنها تقع في هاوية الغنوصية فتذكر ان المسيح (المخلص الذي يحرر الانسان من عالم المادة) .كما لاتخلوا من مبالغة، وهي تشابه في بعض حوادثها جانبا من احدى القصص المصرية القديمة (مغامرات وينامون) البحري التي يبدو انها كانت شائعة في مصر في القرن الثاني للميلاد. (٣)

١٤ - ترجمت في هذه الفترة الى السريانية مجموعة من اقوال وحكم الفيلسوفة والرياضية الرومانية (ثيانو Theano ) والتي ولدت في عام (٥٤٦ ق.م.)

زوجة اشهر عالم للرياضيات (فيثاغورس). وكانت قد الفت عدة رسائل علمية بحسب عصرها الذي يمزج بين العلم والمعتقدات الوثنية، كما عرفت بتقديم النصيحة الى المرأة وخاصة مايتعلق بقيامها بتربية الاطفال. ومن ابرز اقوالها: مالم تكون الروح خالدة، فسوف تكون الحياة مجرد وليمة لمرتكبي الشر. ونصحت المرأة قائلة: لأن تكوني فوق حصان جامح، خير لك من ان تكوني امرأة لا تفكر. (٤)

#### ١٥ - منافحات ميلتو المتشبه بميلتيادس. Pseudo-Millto,s Apology

ميلتو كاتب عاش على الارجح كما يقول العلامة سباستيان بروك، في القرن الثاني للميلاد، متشبهها بالفيلسوف ميلتيادس الروماني، وكتب خطابا فلسفيا كأنما يوجهه الى القيصر ماركوس اورليوس، يدافع فيه عن المسيحية ويتمنى ان يصبح هذا القيصر نصرانيا، وادبه خليطا من الفكر المسيحي والاراء الفلسفية اليونانية القديمة، ولكن الفكرة الرئيسية في النص كانت ضرورة الايمان بالله، باعتباره الحقيقة. ويشير بروك انه ربما كان هذا القيصر قد مال الى المسيحية (١٦١-١٨٠)، الا ان بعض الباحثين يرون ان هذه النص يعود الى القرن الثالث. ولدينا من الفترة المسيحية الاولى ثلاثة او اربعة كتاب مشرقيين مجهولي الاسم، سعوا للتشبه بالكتاب اليونانيين او الرومان، من امثال، ايضا، ميناندر السرياني. (٥)

١٦- يمكن اضافة اعمال اول مؤرخ مسيحي الى الاداب المشرقية المبكرة، على الرغم من انه كتب مؤلفاته باللغة اليونانية. اذ خلف لنا اوسابيوس القيصري (٢٦٥-٣٤٠) عدة مؤلفات تاريخية هي: ١-التاريخ الكنسي (ترجم الى العربية)

٢- اخبار الاحداث ٣- ترجمة حياة الامبراطور قسطنطين (حياة قسطنطينوس الكبير) ٤- شهداء فلسطين، بالاضافة الى كتابين عن الانجيل المقدس.

١٧- وجدت في مكتبة بيتسبرك الروسية مخطوطة تضم مقالات تعود الى تيطس اسقف مدينة بصطرى (سميت في القرن السابع بصرى) تضم مقالات ضد الديانة المانوية، وهي من الكتابات الاولى الباقية عن المانوية التي انتشرت في القرن الرابع.

واخيرا كانت وكالة رويتر قبل سنتين تقريبا، قد نشرت ان سلطات منطقة شمال قبرص التركية، عثرت في غارة على جماعة مشتبه بهم يهربون آثارا قديمة، على مخطوطة قديمة جدا من الانجيل مكتوبة باللغة الارامية: لغة المسيح، وقيل انها مكتوبة بلغة سريانية قديمة. كان الخط مكتوب بحروف مذهب. ويقول الخبراء الذين عاينوا المخطوطة انها من الرق. وعلى الصفحة الامامية صورة شجرة النخيل التي تعتبر شجرة مباركة، وانها قد خيطت بخيوط خشنة متخلخلة، وان الصفحة الثانية كانت فيها ثمان اسطر بالخط السرياني. واذا كانت بالارامية، فيعني العثور على اقدم النصوص للانجيل في العالم. ولعلها نسخة من انجيل تتيان الاشوري الذي كتبه كما يرجح بين ١٧٠-١٧٣، كما عثر معهم على تمثال لرجل يصلي، وقال خبير من جامعة كمبرج البريطانية ان المخطوط يعود على الأرجح الى عام ٢٠٠م. ويذكر انه توجد اشارة في احد النصوص ان انجيل متى كان قد كتب اولاً بالارامية.(٧)

## اهم المصادر

1- Brock, Sebastian . Cambridge History of Early  
. Literature

2- Anchor Bible Dictionary.

3- بروك، سباستيان. الادب الدنيوي والديني السرياني. ينايعنا العدد الاول  
2005

4- Guthrie, George. Hebrew (Commentary)

5- Cureton, W. Spicilegium Syriacum . 1855

6- رايت. الوجيز في تاريخ الادب السرياني. ص49

7- وكالة رويتر في 7/2/2009

(\*) الراهب ياسر عطا الله. "مسيحانية موشحات سليمان". بين النهرين.  
العدد 153-154، 2011، ص69